منهجُ الرافعي في الكتابة

للأستاذ : محمد سعيد العريان

لم تكنِ الكتابةُ عند الرافعي فكرةً ، ومعنى ، وعاطفة فحسب ؛ بل كانت إلى ذلك فَناً ، وأسلوباً ، وصِناعة ؛ والأدبُ العربيُّ منذ كان إلى أن يُطوَى تاريخُه بين دَفَّتين ، هو فِكْر ، وبيان ، ما بُدٌّ من اجتماع هاتين المزيَّتين فيه ؛ ليكونَ أدباً يستحقُّ الخلود .

ذلك كان رأيُ الرافعي ومذهبه ؛ فمن ذلك لم يكنْ يعتبرُ المقالةَ ـ وقد انتظمت في خاطره معنى وفكرة ـ مقالةً تستحقُّ أن تُكتب وتُنشر إلا أن يهيئ لها الثوبَ الأنيقَ الذي تظهرُ به لقرائها ؛ وهذه هي المرحلةُ الأخيرةُ .

وأوَّلُ ما يعنيه في ذلك هو بَدْءُ الموضوع وخاتمته ؛ لستُ أعني العبارة التي يبدأ بها ، والتي يختم ، ولكنِّي أعني طريقةَ البدء والختام في الموضوع . شأنه في ذلك شأنُ القاصِّ : تجتمعُ له أسبابُ القصة بمقدِّماتها وحوادثها ، وما آلتْ إليه ، مرتَّبة ترتيب الحادثة بما بدأتْ وما انتهتْ ؛ حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمعُ أو يكتبها لمن يقرأ ، قدَّم وأخَّر ، وأظهر وأخفى ، وبدأ القصة بما لم تبدأ ، ليعقدَ (العقدة) ويرصُد للحلِّ ، والنفسُ مستشرفةٌ إليه ، متطلعةٌ إلى خاتمته .

وكذلك كان الرافعيُّ يفعلُ في مقالاته .

فإذا عَقَدَ العُقْدة ، ورتَّب موضوعَه ترتيبَ الفصول في الرواية ، آن أوانُ الأداء ، فأخذ له أهبته ، فيطوي وُرَيْقاته ساعة ، ليرجعَ إلى كتابِ أيِّ كتابٍ من كُتب العربية ، يقرأُ منه صفحات كما تتفق ، لإمامٍ من أئمة البيانِ العربيِّ ، فيعيشُ وقتاً ما قبل أن يكتبَ في بيئة عربية ، فصيحة اللسان . وخَيْرُ ما يقرأ في هذا الباب ؛ كتابات الجاحظ وابن المقفَّع ، أو كتاب « الأغاني » لأبي الفرج .

وسألتُه في ذلك فقال : « نحنُ يا بني نعيشُ في جوٍّ عامٍّ لا يعرفُ العربية ، ما يتحدَّثُ به الناسُ ، وما يُنشئ كُتَّابُ الصُّحُف في ذلك سواء ، واللسانُ العربيُّ هنا

في هذه الكتب . إنها هي البادية لمن يطلبُ اللغة في هذا الزمان ، بعد ما فسد لسانُ الحضر والبادية . . . » .

على أنه كان لا يُفيدُ من هذه القراءة اليسيرة قبيلَ الكتابة إلا الجوَّ البيانيَّ فقط ، أما حروفُ اللغة ، وأما أساليبُ اللغة فلم تكنْ تعنيه في شيء ؛ فيقرأ عجلانَ غيرَ مُتلبِّث ، كما يطالعُ صحيفة يومية ، حتى يفرغ من الفصل الذي بدأ ؛ ثم يطوي الكتاب ، ويستعدُّ للإملاء .

وإذا كان كثيرٌ من الكُتَّاب تزعجهم الحركةُ والضوضاءُ ، وتعوقُهم عن الاستمرار في الكتابة ، فإنَّ الرافعيَّ كان ـ على ما في أذنيه ـ يزعجه أن يمرَّ النسيمُ على صفحة خدِّه .

كان مَكْتَبُه إلى جانب باب الشُّرفة ، وكان لي نضدٌ صغيرٌ إلى جانب مكتبه حيث أجلسُ ليملي عليَّ ؛ فكان يلذُّ لي أحياناً والجو حارٌّ أن أفتحَ بابَ الشُّرفة لأتروَّح ، فلا تكادُ تهبُّ نسمةٌ بجانبه حتى يكفَّ . وعرفتُ عادته هذه ، فكنتُ أغلقُ الشُّرْفةَ والنافذةَ معاً ، لأصْلَى حَرَّ الغرفةِ أربعَ ساعات ، أو يزيد حتى يفرغ من إملائه .

وكان يُؤْذيني من ذلك أنني كثيرُ التدخين ؛ والحرُّ والمجهودُ العصبيُّ يزيدان الرغبةَ فيه ، فلا يمضي ساعتان منذ بدأنا حتى يفسدَ جوُّ الغرفة ، فأفتحُ الشرفةَ برهةً لتجديد الهواء ، نتبادلُ فيها الحديثَ ، ثم أعودُ فأغلقها ليملي عليَّ .

على أنه في غير وقت الكتابة كان يحبُّ أن يقضيَ في الهواء الطَّلْق أكثر وقته ، حتى في بَرْد الشتاء القارس ؛ فكان إذا فرغَ من إملائه خرجَ إلى الشُّرفة البحرية يفتحُ صدره للهواء يعبُّه عَبّاً ، كما يُقبل الشاربُ الحرَّان على الماء في يوم قائظ .

ولم أكنْ أقاطعه حين يملي عليَّ مقاطعةً ما ، إلا حين أشعرُ بأنه يهمُّ بالانتقال في الموضوع من فَصْل إلى فَصْل ، فألقي إليه ما أريدُ أن أقولَه مكتوباً في ورقة ، لأحاوره في عبارةٍ ، أو لأستوضحه معنى . . . ثم يعودُ إلى إملائه ، وأنا أكتبُ صامتاً ، وهو لا يرفعُ عينيه إليَّ . . . كأنما يتحدَّثُ من وراء ستارٍ إلى سامعٍ غير منظور ، أو كأنه في نَجْوى خاصَّة ، ليس فيها سامعٌ ولا مجيب .

ولقد كان يخيَّلُ إليَّ أحياناً ـ وأنا صامتٌ في مجلسي ، والقلم يجري في يدي على الصَّحيفة ، وأذني مرهفةٌ للسمع ـ كأنه في شبه غيبوبة ، يتحدَّث إلى نفسه ،

والمجلسُ خالٍ إلا منه ، فما أنا فيه بشيء إلا إدراكاً غير مجسَّد .

وأحياناً أخرى كانت تتسعُ روحُه ، وتنبسطُ حتى تشملني ، فما أكتبُ كلاماً يمليه عليَّ ، ولكن تمليه نفسي على نفسي ، وإنَّ صوته ليرنُّ في أذني بما سبق إليه خاطري .

ولم يكنْ يملي مُسْترسلاً ، ولم يكنْ يملي وانياً متمهِّلاً ، ولم يكن في كل أحواله سواءً ؛ فحيناً يطاوعه القولُ ، وحيناً يتأبَّى عليه فيسكت ، وهو يدقُّ على المكتب بحديدةٍ في يده ، ويُغَمْغِم بصوتٍ لا يبين ؛ فإذا طال عليه الإرتاجُ تناول كتاباً ، أيَّ كتابٍ على مكتبه ، فيفتحه فيقرأ كلمةً ، أو سطراً ، أو جملة ؛ ثم يطوي الكتابَ ، ويعودُ إلى الإملاء .

ولقد يراه مَنْ يراه في هذا الوقت فيحسبه يملي مما يقرأ ، وما به ذاك ، ولكنها كانت لازمةً من لوازمه تعوَّدها حين يُرتج عليه ، وتعوَّد أن يجدَ فيها مفتاحَ القول .

ولقد أُرتج عليه مَرَّةً فطال به الصَّمتُ ، فمدَّ يدُه إلى كتابٍ على مكتبه وهو يقولُ ضاحكاً : « يا أخي ! لقد تعوَّدتُها ، وما أجدُ لها عِلَّة ، وتعوَّدتُ بها أن أجدَ ما أريدُ عند أول كلمةٍ أقرؤها ، ولو كان الكتاب معجماً لغوياً . . . » . وكان الكتابُ الذي مَدَّ إليه يَدَهُ هو (القاموس المحيط) ، قلتُ : « إنَّ في بعض الأشياء مثل المفاتيح العصبية . . . » . قال : « صَهْ ، هذه هي الكلمة التي أريدها : المفاتيح العصبية . . . » ثم طوى الكتابَ ، وعاد إلى الإملاء .

وكانت له عنايةٌ واحتفالٌ بموسيقية القول ، حتى ليقفَ عند بعض الجمل من إنشائه برهةً طويلةً ؛ يحرك بها لسانَه حتى يبلغَ بها سمعه الباطن ، ثم لا يجدُ لها موقعاً من نفسه فيردَّها وما بها من عيب ، ليبدلَ بها جملةً تكونُ أكثر رنيناً وموسيقا .

وكان له ذوقٌ فنيٌّ خاصٌّ في اختيار كلماته ، يحسُّه القارىءُ في جملة ما يقرأ من منشآته ، ولكنِّي كنتُ أجدُ الإحساسَ به في نفسي عند كل كلمة وهو يملي عليَّ .

هذا الذوقُ الفني الذي اختصَّ به ، هو الذي هيَّأه إلى أن يفهمَ القرآنَ ، ويعرف سِرَّ إعجازه في كل آية ، وكلِّ كلمة من آية ، وكلِّ حرفٍ من كلمة .

وحَسْبُ القارئ أن يعودَ إلى تفسير الرافعي لقوله تعالى : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى

بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ . . . ﴾ [يوسف : ٢٣] ليرى نموذجاً من هذا الذَّوق الفني العجيب في فهم اللفظ ، ودلالة المعنى ، يقابله وجهٌ آخر من هذا الذوق في اختيار ألفاظه عند الإنشاء .

وكان إلمامُه بمتن اللغة ، وإحاطته بأساليب العربية ، ومعرفته بالفُروق اللغوية في مترادف الكلام معينةً له عوناً كبيراً على البلوغ بعبارته هذا المبلغ من البيان الرفيع .

احتاج مرةً أن يُعَبِّر عن معنى في أسلوبٍ من أسلوبه ، فأُرْتج عليه ، فأخذ يغمغمُ برهةً وأنا مُنْصِتٌ إليه ؛ فإذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته باباً من كتاب « المخصَّص » لابن سيده ، ثم دعا بالكتاب ، فأخرجتُه إليه ؛ فما هو إلا أن فَتَحه حتى وقع على مُراده ، فطوى الكتابَ ، وعاد إلى إملائه .

وهو على صحة عبارته ، وسلامتها ، قلَّما كان يلجأُ إلى معجم من المعاجم ليبحث عن كلمة ، أو معنى كلمة . ومع حِرْصه على أن يكون قويَّ العبارة ، عربيَّ الدِّيباجة ، قلَّما كان يستعملُ عبارةً من عبارات الأولين . وكم أجدَّ على العربية من أساليبه ومعانيه !

وكان له في إنشاء (الكناية) إحساسٌ دقيق . وأحسب لو أنَّ واحداً من أهل البيان أراد أن يتتبعَ ما أجدَّ الرافعيُّ على العربية من أساليب القول ، لأخرج قاموساً من التعبير الجميل ، يعجزُ عن أن يجدَ مثله لكاتب من كُتَّاب العربية الأولين ؛ إذ كان مذهبُ الرافعي في الكتابة هو أن يُعْطي العربية أكبرَ قسطٍ من المعاني ، ويضيف ثروةً جديدةً إلى اللغة ، وقد بَلَغَ ما أَراد .

إنني لم أعرفْ كاتباً غيرَ الرافعي يجهدُ جهده في الكتابة ، أو يحملُ من هَمِّها ما يحملُ ؛ وما أعرفه حاولَ مرةً واحدةً أن يسخرَ من قُرَّائه ، أو يُشَعْوِذَ عليهم ؛ ليملأ فراغاً من صحيفة يريدُ أن يمتلئ .

على أنه أحياناً كانت تدعوه دواعٍ إلى كتابة لم يتهيَّأْ لموضوعها ، أو يفرغْ لها باله ، فيمليها على عَجَلٍ بلا إعدادٍ ، ولا توليدٍ ، ولكنك مع ذلك تجدُ عليها طابعَ الرافعي وشخصيته ، فتعرف كاتبها وإن لم يُذَيِّلْها باسمه .

والعجيبُ أن هذا النوعَ من المقالات التي كان الرافعيُّ يكتبها بلا إعداد ،

ولا احتفال ، كان أحبَّ إلى كثيرٍ من القراء ، وكان الرافعيُّ يرتفعُ به عن منزلته درجاتٍ عند طائفة من القراء .

والشَّايُ ، أو القهوةُ هما كلُّ المنبهاتِ العصبية التي يطلبها الرافعيُّ عندما يكتب ، وفنجانة أو اثنتان هما حَسْبُه في هذا المجلس الطويل .

وعلى أنه في أُخريات أيامه قد ولع بتدخين الكركرة (الشيشة) ، فإنه لم يكنْ يدخِّن إلا دخينة (سيجارة) أو دخينتين في مجلس الكتابة ؛ فكان يشتري العلبةَ فتظلّ في دُرْج مكتبة شهراً إذا لم يَزُرْهُ في مكتبه زائرٌ .

فإذا فرغ الرافعيُّ من إملاء مقاله ، تناوله مني فطواه قبل أن يقرأه ، ثم يُوْدِعه دُرْجَ مكتبه إلى الصَّباح ، ويخرج إلى الشرفة يشمُّ نسيمَ المساء . . . ثم يأوي إلى فراشه . . .

وأوَّلُ عمله في الصباح بعد صلاة الفجر أن يعودَ إلى المقال الذي أملاه عليَّ في الليل فيقرأه ، ويُصحِّحه . . . ثم يسعى به ساعيه إلى حيث يُنْشَر . . . ويفرغ يوماً لنفسه قبل أن يُهيِّئ فكره لموضوعٍ جديدٍ .

مقالة . . . هي عملُ الفكر ، وكَدُّ الذهن ، وجَهْدُ الأعصاب ، وحديثُ النفس في أسبوع كامل ؛ ولكنها مقالة . . . ومع ذلك فقد أنشأ كتابَ « رسائل الأحزان » في بضعة وعشرين يوماً ، وكتب « حديث القمر » في أربعين ، وكتب « السَّحاب الأحمر » في شهرين .

وقال قائلٌ من خصومه : « إنه يقاسي في هذه (الكتابة) ما تقاسي الأمُّ من آلام الوضع . . . ! » .

وقال الرافعيُّ يجيبه : « أتحداكَ أن تأتيَ بمثلها ، أو بِفَصْلٍ من مثلها . . . وعليَّ نفقاتُ القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامةِ اللهِ » .

* * *